التسامح الديني في خلافة عمر بن عبد العزيز

أ.علي عدلاوي
جامعة الجلفة

مقدمة:

الإسلام دين يحترم أهل الديانات السماوية السابقة،ويشدد النّكير على من آذى أحدا منهم بقول أو عمل،بل ويأمر ببرّهم وصلتهم، ماداموا على عهدهم،لم يغدروا ولم يخونوا قال تعالى:(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين).[1]

وحتى من ناصب المسلمين العداء،وأعلن عليهم الحرب،فالإسلام يأمر أتباعه بأن لا يبدؤوهم بقتال، حتى يعرضوا عليهم الإسلام،فإذا ما فرض عليهم القتال فهناك عندئذ توجيهات سامية وأخلاق عالية يأمر بها مقاتليه،منها تحريم ضرب الوجه والمثلة،وعدم الإجهاز على الجرحى ومنع قتل النساء والشيوخ والأطفال،وكذا من لم يقاتل، والذين فرّغوا أنفسهم في دور العبادة ،كل هؤلاء مستثنون من القتل،وهذا يدلّ على مراعاة الإسلام لحقوق الإنسان،وفي أشدّ الأوقات حرجا.

وقد جاءت النصوص الشرعية لتبني جسور التواصل بين المسلمين وغيرهم من شعوب الأرض،على اختلاف نحلهم ومللهم،منها قول تعالى: ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[2]،وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم السفراء إلى ملوك العالم،بعد أن استقرت مؤسسات الدولة الإسلامية في المدينة المنورة فأرسى بذلك: (القواعد الأساسية والمبادئ الأصولية للتعايش الذي يجب أن يسود كل الفئات والمجموعات التي يتكوّن منها النسيج الاجتماعي للمجتمع الإسلامي،بقطع النظر عن أجناسهم وأعراقهم وألوانهم ومعتقداتهم)[3].

وعلى هذا الهدي المبارك سار الخلفاء الراشدون – ومنهم عمر بن عبد العزيز، فعاش غير المسلمين في ظلال خلافتهم آمنين على أموالهم وأعراضهم ومقدساتهم الدينية، ولم تصب حقوقهم السياسية بأي خدش أو انتهاك.

لقد وجدت على عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعض الطوائف الدينية والسياسية، التي تعامل معها الخليفة الموهوب بتسامح عز نظيره في تاريخ الإسلام كله، ونذكر منها ما يلي:

أولا: أهل الذمّة

الذمّي هو غير المسلم الذي رضي بالرعوية والتبعية الإسلامية، بموجب عقد مع الدولة الإسلامية، يسمّى عقد الذمة[4]، وبموجبه يتمتع بجملة من الحقوق منها حرية العبادة والمعتقد، فلا يجوز إكراهه على الإسلام، لقوله تعالى: (لا إكراه في الدين)[5] ولأهل الذمة إظهار شعائرهم الدينية، كإخراج الصلّبان ودقّ النواقيس في مناسباتهم الدينية، ولهم حقّ التجنّس بجنسية دار الإسلام، وبذلك يمكن توليتهم في مناصب الدولة المختلفة، كوزارة التنفيذ وجباية الخراج والجزية، وفي مقابل هذه الحقوق، يجب على الذمي دفع الجزية، وهي مبلغ من المال نظير حمايته وأمنه، وعدم مشاركته في العمليات العسكرية خارج أرض الإسلام[6].

وقد وردت كثير من الأحاديث والآثار الإسلامية التي ترعى هذه الحقوق، وتوجب على المسلمين صيانتها وأداءها، ومنها:

1- قوله صلى الله عليه وسلم: ((ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه وكلّفه فوق طاقته أوأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة))[7].

2- وقوله: ((من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما))[8].

3- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل الوافدين عليه من الأقاليم ، من أهل الذمة عن أحوالهم ، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: "ما نعلم إلا وفاء"، أي بمقتضى العقد الذمّي بينهم وبين المسلمين، وهذا يستوجب أن كلاّ من الفريقين قد وفّى بما عليه .

4- وكان علي بن أبى طالب يرعى ذلك بقوله : "إنّما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا".

5- ولما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيخا من أهل الذمة يمدّ يده بالسؤال،ساءه ذلك،ففرض له ولأمثاله عطاء من بيت المال ، ثم قال:"ما أنصفناه، إذ أخذنا منه الجزية شابّا ثم نخذله عند الهرم".

والحقّ الذي يذكر في هذا المضمار،أنّ بني أمية قد تسامحوا تسامحا منقطع النظير مع أهل الذمة فقد(قرّبوا المسيحيين إليهم ، واستعانوا بهم ، واسندوا إليهم بعض المناصب العالية ، وقد جعل معاوية بن أبي سفيان: سرجون بن منصور الرّومي المسيحي كاتبه وصاحب أمره)[9].

وقد وقّع المسلمون مع النصارى عام 98ه بالشام عقدا يقتضي أن يلبسوا لباس المسلمين بلا تمييز بين الطائفتين .

ولقد اختار عبد الملك بن مروان رجلا منهم مؤدّبا لأخيه عبد العزيز، فلما أن ولي هذا الأخير استصحبه معه إلى مصر، وكان من خاصة جلسائه ،واغتنى بصحبته أموالا طائلة, ومع كل هذا التسامح الأموي الكبير،إلاّ أنّه وجد من العمال الظلّمة،كالحجاج بالعراق،وأسامة بن زيد التنّوخي بمصر،الذين كانوا يذلّون أهل الذمة ويمعنون في احتقارهم,ولمّا أن ولي عمر بن عبد العزيز،نهى عن إذلالهم,قال مبشّر بن الفرات:"كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز،فكنت

أختم على بيادر أهل الذمة،فجاءني كتاب عمر بن عبد العزيز أن لا تفعل،فإنه بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج،وأنا أكره أن أتأسّى به".

وكان يدافع عنهم ويأمر عمّاله وشرطته أن يدفعوا عنهم الظلم،وبلغ به الأمر أن كتب إلى ولاته كتبا يعلّمهم فيها حقوق أهل الذمة وما ينبغي لهم شرعا، لكي يحسنوا معاملتهم ، ولا يتجاوزوا حدود الشرع في ذلك ، ومنها قوله: "فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم،فخالط عامّة المسلمين في دارهم،وفارق داره التي كان بها،فإنّ له ما للمسلمين وعليه ما عليهم،وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه"[10].

وممّا حفظه أهل الذمة لعمر بن عبد العزيز،أنّه أمر بهدم جزء من المسجد الأموي،كان الوليد قد اغتصبه من النصارى،حين أمر بهدم جزء من كنيستهم ليضمّ إلى المسجد على كره منهم،الأمر الذي دفع بعلماء المسلمين حينذاك أن يناشدوا أحبار النصارى في التنازل عن ذلك الحق الذي عزم الخليفة على إنفاذه، فرضوا بذلك،فعوضهم عمر بموضع آخر يدعى الغوطة، فبنوا عليه كنيسة القدّيس توما[11].

وحين طلب منه أمراء بني أمية الخروج من بلاد الشام،أذن لهم واشترط عليهم أن لا يتعرّضوا لأهل الذمّة بأذى،وإلاّ ستنالهم العقوبة الصارمة. وكان عمر شديد الحرص على إدخالهم في دين الإسلام،وقد أنفق في ذلك أموالا طائلة يتألّفهم بها،وينفّذ بذلك ما أمر به عز وجل في قوله تعالى:(.والمؤلّفة قلوبهم)[12]، حين وجّه ولاة الأمر إلى منحهم نصيبا من مال الزكاة.ومن ذلك أنه أعطى قائدا نصرانيا ألف دينار تألّفه بها على الإسلام،ونشط في دعوتهم عن طريق ولاته وعماله بجميع الأمصار،حين حثّهم وعزم عليهم في هذا الشأن،(وقد قيل إنّ الجراح بن عبد الله

عامله على خراسان أدخل في الإسلام نحوا من أربعة آلاف شخص ،كما قيل أنّ عمر كتب إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه إلى الدخول في الإسلام).

وهنا يظهر أثر الحاكم في السلم والمصالحة، فماذا يكون عمل الجرّاح لو كان واليا لرجل كالحجاج، إنّه سيمضي في إرضاء سيده، فيسيء بذلك إلى سمعة الإسلام والمسلمين.

لقد دخلت هذه الدعوات المباركة على نفوس أهل الذمة، وخاصة النصارى منهم بردا وسلاما فصاروا يضيفون في كتبهم كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم الرسول وإلى أسماء الخلفاء الراشدين كلما عرضوا لذكرهم، ويستنزلون فيما بعد كلمات الرّحمة والغفران على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز(13).

ومن بين أهمّ الإجراءات التي فرضها عمر في هذا الاتجاه، أن فرض من بيت مال المسلمين لأهل الذمة، الذين عجزوا عن تأمين معيشتهم لكبر أو عجز، وكتب إلى عامله عدي بن أرطأة:"ثمّ انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنّه وضعفت قوّته وولّت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه"(14).

وقد كان بنو أمية قد اقتطعوا أموال وأراضي أهل الذمة ظلما وعدوانا، فلما تولّى عمر ردّها عليهم. روى ابن الجوزي قال:"لما فرغ عمر من دفن سليمان، دخل بيته يتبوّأ مقيلا، فاستحثّه ولده عبد الملك على رد المظالم ،فخرج ولم يقل، وأمر مناديه أن ينادي:ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمّي من أهل حمص، أبيض الرأس واللحية، فقال:يا أمير المؤمنين أسألك كتاب اللّه، قال:وما ذاك؟

قال:العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي- والعباس جالس- ،فقال له: يا عبّاس ما تقول؟ قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بذلك سجلاّ،فقال:ما تقول يا ذمّي؟قال:يا أمير المؤمنين:أسألك كتاب الله عز وجل،فقال عمر:كتاب الله أحقّ أن يتّبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ،أردد عليه يا عباس ضيعته،فردّها عليه"(15).

وخفّف عمر عن أهل الذمة الضرائب التي تؤخذ عّن تجارتهم،فأخذ عن كل عشرين: دينارا واحدا ، وإذا بلغت عشرة دنانير لم يأخذ منها شيئا،وأما الخراج المأخوذ عن أراضيهم فقد أعفاهم منه في حال دخولهم الإسلام .

وأما ما ورد بشأن تمييزهم بزي معين،فإن الحاجة دعت إليه،وذلك حين بلغه عن قوم منهم جمعوا سلاحا كثيرا يريدون به طعن الدولة من الظهر. ومن تمام تواضعه وصلته إياهم أنه كان يجيبهم إلى دعوتهم إياه للطعام، فيأكل معهم ويعطيهم من طعامه الكثير،فعن الأوزاعي قال: "وكان ينزل بأهل الذمة فيقدّمون إليه من الحلبة والبقول وأشباه ذلك،مماّ كانوا يصنعون من طعام، فيعطيهم أكثر من ذلك، ويأكل منه".

وقد كسب عمر من كل ذلك حبّ أهل الذمة وتقديرهم له،فلما مرض مرضه الذي مات فيه،سارع إليه أحد أطبائهم وكبير أساقفتهم يداويه،ولمّا مات بكوا عليه(16).

❖عمر بن عبد العزيز ومسألة الجزية:

إن إصلاحات عمر في هذا الشأن كانت في مصلحة الإسلام أكثر منها في مصلحة بيت المال،فقد وضع الجزية عمّن أسلم من أهل الذمة،وكان من أثر ذلك أن زاد إقبالهم على الإسلام،فتأثّر بيت المال بذلك، فنقصت موارده المهمة من

الجزية،فكتب إليه عمّاله يطلبون منه أن يعيد فرض الجزية على من أسلم، لتعويض خسائر خزينة الدولة،ومن أولئك عامله على مصر الذي استأذنه في فرض الجزية من جديد على من أسلم من أهل الذمة، فردّ عليه عمر بقوله:"..فضع الجزية عمّن أسلم قبّح الله رأيك،فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ،ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام عن يده".

وكان ولاته في كل الأقاليم يشكون من ذلك،حتى عمدوا إلى اتّهام أهل الذمة بالنفاق،وبأنّهم ما دخلوا الإسلام إلاّ هروبا من دفع الجزية،ولذلك الغرض أراد عامل خراسان أن يمتحنهم بالختان،فلمّا سمعه عمر نهاه قائلا: " إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ولم يبعثه خاتنا"[17].

وهاهو عامله بالعراق أيضا يشكو من هذه الظاهرة،فيكتب كتابا إليه يستأذنه في فرض الجزية،فيردّ عليه بقوله:"فهمت كتابك،والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا ،حتى نكون أنا وأنت حرّاثين،نأكل من كسب أيدينا". وهنا يظهر أن وظيفة الدولة في الإسلام هي الدعوة،وأن أولى أولويات الحاكم المسلم هو نشر الإسلام حتى يدخل الناس كلّهم فيه.

ويبدو أنّ الجرّاح عامل خراسان ندم على إسلام أهل الذمة،فضرب بتعليمات الخليفة عرض الحائط،وراح يفرض الجزية على من أسلم،فارتدّ بسبب ذلك كثير من أهل الذمة،فلما بلغ عمر فعله عزله وولى مكانه عبد الرحمان بن نعيم القشيري،وقال: "إنّ الله إنّما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا،ولم يبعثه جابيا"[18].

ومكث عمر مدة خلافته يخفف الجزية عن أهل الذمة،حتى وصل بها إلى ما كانت عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار،وذلك حين

فرضها على نصارى أيلة وهو في تبوك وقد جرى الخلفاء الراشدون على ذلك الهدي، حتى جاء بنو أمية فزادوا فيها زيادات فاحشة، أرهقت كاهلهم وورّثت في قلوبهم الضغائن، ولذلك حمدوا فعل عمر فأحبّوا الإسلام من خلاله ودخلوا فيه أفواجا[19]

ثانيا: المستأمنون[20]

المستأمن- بكسر الميم : طلب الأمان و- بفتح الميم- ممن صار آمنا، وفي الاصطلاح: الحربي[21]، وهو غير المسلم التابع لدولة غير إسلامية، إذا دخل إقليم الدولة الإسلامية، بإذن منها، وهذا الإذن يسمّيه الفقهاء: الأمان المؤقت، فالمستأمن إذن يقابل الأجنبي في الاصطلاح القانوني الحديث والمستأمن في دار الإسلام يتمتّع بكثير من الحقوق العامة، فقد اعتبره الفقهاء بمنزلة ومرتبة أهل الذمة في بلاد المسلمين.

ومن تلك الحقوق جواز دخول دار الإسلام، ولو كان بين دولته ودولة الإسلام حرب، وذلك بطبيعة الحال بعد قرار الحاكم المسلم عند طلب ذلك منه، بل ويجب - حينئذ- دخوله إذا كان الغرض هو سماع كلام الله وتعلّم شرائع الإسلام، لقوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)[22]، وفي مقابل ذلك تشدد عليهم الحراسة لئلا تكون زيارتهم لغرض التجسّس أو نشر الرّذيلة أو الدّعوة إلى دينهم، وفي هذا الإطار حدّد الفقهاء مدّة إقامتهم في أرض الإسلام من سنة إلى عشر سنوات، والحقّ أنّ الأمر متروك إلى مصلحة الدولة الإسلامية، كما أنه يجب على الدولة الإسلامية أن تعمل على حمايته، ولا تسلمه لدولته التي هرب من جورها وظلمها، وذهب الفقهاء إلى حدّ مقاتلتها من أجله، إن هي أرادت ذلك عنوة، ذلك أنّ (الوفاء بمقتضى الأمان واجب على دار الإسلام، وتسليمه غدر به وعدم وفاء، لا رخصة فيه فلا يجوز).

ويجوز تنقّله في دار الإسلام،إلاّ إلى الحرم فيمنع عليه وعلى الذمي سواء،ولا يكره على تبديل دينه ولو كان وثنيّا،ويجوز إعانته من بيت مال المسلمين لسدّ حاجته، كما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما بعث لأهل مكّة بمال،حين أصابهم القحط،بالإضافة إلى جملة من الحقوق الأخرى،كحق الملكية وبناء أسرة وحقّ التوارث[23].

وقد حدث أنّ أهل سمرقند كانوا من المستأمنين الذين قبلوا الصلح عن غير رضى وطواعية،حين غزاهم قتيبة بن مسلم ولم ينذرهم بقتال فقالوا لعاملهم سليمان بن أبى السّرح:"إنّ قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا فليفد منّا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا،فإن كان لنا حق أعطيناه،فإنّ بنا إلى ذلك حاجة"،فأذن لهم،فوجّهوا منهم قوما إلى عمر بن عبد العزيز،فلمّا علم ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له:"إن أهل سمرقند قد شكوا ظلما أصابهم،وتحاملا من قتيبة عليهم،حتى أخرجهم من أرضهم،فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي،فلينظر في أمرهم،فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم". فقضى أن يخرج المسلمون من سمرقند،وبالفعل بدؤوا يجمعون أغراضهم ويعتذرون إليهم،وما إن رأى أهل سمرقند عزمهم على الخروج،حتى طلبوا إليهم الإقامة معهم،وقالوا:"قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمنّاهم"وبهذا قضى عمر على ذلك الاحتقان الموجود لديهم،وأفرغ ما في نفوسهم من الضغائن، وبهذه المصالحة الكريمة عاش الفريقان في سلام ووئام[24].

ثالثا: الحربيّون

وهم من لم يعقدوا الصلح مع المسلمين،وتركوا الباب مفتوحا على كل الاحتمالات، إما بالحرب أو السّلام، وكان الجوّ مشحونا جدّا بين الدولة الإسلامية وغيرها من دول الكفر حينذاك،وكانت سوق الجهاد والفتوحات نافقة،وحماس

الجماهير المسلمة للغزو منقطع النظير،وقد عوّل بنو أمية خلال سني حكمهم على الغزو والإغارة على الكفار،وخاصّة على عهد الوليد بن عبد الملك.

وبمجرد أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أعاد النظر في سياسة المواجهة هذه،وآثر السّلم وحقن دماء المسلمين، ومن ثمّ تفرّغ لمصالح المسلمين وإصلاح شؤونهم الداخلية،واستعاض عن فتح الحصون بفتح القلوب والعقول للإسلام،عن طريق الكتب والرسل التي بعثها إلى شعوب وملوك العالم - حينذاك- بغرض الدخول في دين الإسلاموقد أكد على ذلك بقوله:"وأمّا من كان اليوم محاربا فليدع إلى الإسلام قبل أن يقاتل،فإن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم".

وقد جمّد عمر بن عبد العزيز جميع الأعمال العسكرية، وفسح الطريق للكلمة والحوار،وبسط يد التعاون من أجل بناء عالم يسوده السّلم والاستقرار والفضيلة،فكان أوّل عمل قام به،أن بعث إلى قادة جيوشه الموجودة خارج البلاد الإسلامية، فأمرهم بالقفول وترك القتال[25].

*وقد بعث إلى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك المرابط بأرض الرّوم يأمره بالعودة،وكان مسلمة قد أقسم- قبل ذلك- أن لا يعود إلاّ بالفتح أو الشهادة،فأصاب المسلمين من ذلك بلاء شديد ومجاعة،(وقد وجّه عمر إلى مسلمة بأرض الروم خيلا عتاقا وطعاما كثيرا،وحثّ النّاس على معونتهم)،وكان عدادها خمسمائة فرس،وأمّر عمرو بن قيس على الجيش الخارج، ليعين المرابطين على العودة إلى بلاد الإسلام،وقد فرح الناس بذلك فرحا شديدا.

*كما أمر في هذا الاتّجاه سكّان طرندة من المسلمين أن يعودوا إلى ملطية خوفا من إغارات الروم عليهم، وأخرب طرندة،واستعمل على المسلمين هناك جعونة بن الحارث[26].

❖ ولم يغز عمر بالمسلمين إلاّ صائفة واحدة وذلك عام 100 ه،وجعل على رأسها عمر بن الوليد بن هشام المعيطي،وعمر بن قيس الكندي من أهل حمص،ولعلّ ذلك كان لمصلحة تأمين الحدود الإسلامية، وتخويف العدو المتربّص والطّامع دائما في استرجاع ما غنمه المسلمون من الأراضي،وعلى رأسها دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها،وهذا يدخل ضمن التّكتيك والإستراتيجية الحربية، التي يقدّرها أهل الخبرة بطبيعة الحال.

❖وأمر عمر الجيوش الإسلامية المرابطة بأرض آسيا الصّغرى بالقفول أيضا وذلك،(رغبة في الانصراف إلى الإصلاح الداخلي،وتحقيق مثل الحياة السياسية التي عمرت وجدانه منذ شبابه الأوّل في المدينة)،فقد كان رجلا يحبّ السّلم ويكره الدّماء والظّلم.

❖وكتب إلى عامله الجديد على خراسان عبد الرحمان بن نعيم الغامدي، (يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم إلى مرو،فعرض ذلك عليهم،فأبوا عليه فكتب إلى عمر أنّهم قد رضوا بالمقام،فحمد عمر ربّه على ذلك)،وذلك لأنه كان يشعر أنّه مسؤول عن أمنهم وحياتهم.

❖وأمّا في بلاد الأندلس،فلم يستطع عمر أن يكبح جماح قادته فيها،وخاصة السّمح بين مالك الخولاني،الذي كان متحمّسا كثيرا لفتح فرنسا، التي أوغل فيها من خلال اختراقه لجبال البرانس وزحفه على مقاطعتي سبتمانيا و بروفانس ثم إغارته على أكيتانيا، محاصرا بذلك مدينة تولوز(طلوشة)، فقابله (دوق أكيتانيا) بجيش كبير، ونشبت بين الفريقين معركة عظيمة قتل فيها السمح وأكثر رجاله[27].

وبالموازاة مع هذه الحملة التي تبنّاها عمر لإقفال المسلمين من الأراضي المحرّرة،وجّه دعوات للملوك والزعماء يدعوهم إلى الإسلام،ويعدهم بأن يقرّهم على ما بأيديهم، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ،وقد سبق أن بلغتهم سيرته العظيمة وعدله في رعيته،فأسلم حليشة بن داهر ملك السند،وتسمّى الملوك بأسماء عربية،كما دخل كثير من أهالي الأندلس وبلاد ما وراء النهر[28] في الإسلام.

وزعم اليعقوبي أن أهالي التّبت وفدوا على والي خراسان ، الجراح بن عبد الله الحكمي،يسألونه أن يبعث إليهم من يعرض عليهم الإسلام ، ويبين لهم أحكامه، فوجّه إليهم السّليط بن عبد الله الحنفي،كما وجّه عبد الله بن معمر اليشكري إلى بلاد ما وراء النهر،وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد وجّه عمر بن مسلم الباهلي عاملا إلى السّند،فأوصاه بالرفق بأهاليها وتشجيعهم على اعتناق الإسلام،فأقبل في ولايته عدد كبير من أبناء السند على الإسلام،وكان بينهم ابن الملك داهر ويدعى جاي سنك،كما وجّه رسالة أخرى إلى ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام[29] .وكان من أثر هذه الصحوة المباركة التي تزعّمها الخليفة الراشد،أن أسلم الطبيب الحكيم ابن أبجر،(وكان طبيبا عالما وماهرا ويتولى التّدريس بالإسكندرية،وقد نقل مركز تدريسه إلى أنطاكيّة وحرّان واستطبّه عمر بن عبد العزيز واعتمد عليه في صناعة الطب)[30].

أما عن معاملته الأسرى،فقد بلغ من التّسامح منتهاه،فقد فدى رجلا من العدو وردّه إلى أهله،ونهى عن نكاح زوجات الأسرى،وكتب إلى أحد عمّاله:"أن لا تقاتلنّ حصنا من حصون الروم، ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام)،ونهى عن قتل النساء والصبيان والأسرى والجرحى في الحروب، وورد أنّه لم يقتل إلاّ أسيرا واحدا من جنود التّرك لأنه قد أمعن في قتل المسلمين،وذلك حينما

أغار الترك على أذربيجان،فقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين،فوجّه إليهم حاتم بن النعمان الباهلي،فقتل أولئك الترك،ولم يفلت منهم إلاّ اليسير،وبعث منهم أسرى إلى الخليفة وهو بخناصرة،وكان عددهم خمسين أسيرا(31).

وبالرغم من كل هذا التسامح الذي لم يشهد التاريخ مثله إلاّ في القليل النادر،فقد كانت حرمات المسلمين عند الخليفة عمر بن عبد العزيز أعظم، ومن ذلك أنه كان يفدي الأسير المسلم الواحد بعشرة من أسارى الروم،وكانت يقظته شديدة، ذلك أنه لما بلغه أن ملك الروم هدّد أحد الجنود المسلمين بأنّه إن لم يرتدّ عن الإسلام إلى المسيحية فسوف تسمل عيناه،بعث إليه بلهجة حادّة:"أمّا بعد،فقد بلغني ما صنعت بأسيرك فلان،وإني أقسم بالله لئن لم توصله إليّ من فورك لأبعثنّ إليك من الجند ما يكون أوّلهم عندك وآخرهم عندي".

وقد وجد على عهده من مستأمني بلاد الروم من يعيش بين ظهراني المسلمين، وكانوا عيونا لأهل بلدهم و جمعوا لذلك سلاحا كثيرا يريدون به الثورة من داخل بلاد الإسلام، فما كان من عمر إلا أن صادر أسلحتهم وأصدر أمرا بأن يتزيّوا بزيّ خاص يعرفون به،وكان ذلك القرار أمرا طارئا ومعزولا اقتضته مصلحة وأمن البلاد و العباد حينذاك(32).

خلاصة:

لقد فقه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز جيدا النصوص الشرعية التي تحث على التسامح الديني مع غير المسلمين، ولم يقف معها الموقف السلبي أو العكسي الذي وقفه كثير من الخلفاء قبله وبعده، بل راح الرجل يطبق حرفيا ما تضمنته تلك النصوص من الإحسان لغير المسلمين والتعايش معهم سلميا ، بل راح

بعيدا في سياسته تلك حتى دخل كثير منهم الإسلام وأحبوه،وصاروا دعاة له في كثير من الأمصار.

إن عمرا بن عبد العزيز ترك آثارا جمة في هذا المضمار اللاحب،يمكن اعتبارها دستورا لكل الحكام والشعوب.

الهوامش:

[1]سورة المتحنة /8.

[2] سورة الحجرات/13.

[3]أهل الذمة في الحضارة الإسلامية ، حسن المَمّي ، ص10.

[4]الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ، عبد الكريم زيدان ،ص31.

[5]سورة البقرة / 256.

[6]المرجع السابق نفسه، ص 66 وما بعدها، النظام المالي في الإسلام ، جمال لعمارة ،ص23 وما بعدها. وقد قسّم العلماء الوزارة إلى وزارتين : وزارة التفويض ، وهي ما يقابل رئاسة الوزراء اليوم ، وهذه لا يجوز أن يتولاها غير المسلم،وزارة التنفيذ، وهي الوزارة العادية في الحكومة المركزية ،أنظر (مواطنون لا ذميون) لفهمي هويدي، ص165.

[7]رواه البيهقي في سننه الكبرى ، عن عبد الله بن عمر بن العاص ،ج9،ص205،(كتاب الجزية- باب لا يدخلون مسجدا)، نقد المنقول"في الأحاديث الباطلة"،الزرعي،ص 114،وقد ذكر بأنه ضعيف.

[8] رواه البخاري في صحيحه،عن عبد الله بن عمرو،ج6،ص2533،(كتاب الديات- باب إثم من قتل ذميا بغير جرم)،رقم6516.

[9]غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ، يوسف القرضاوي ، ص11 وما بعدها ،أهل الذمة في الحضارة الإسلامية ،حسن الممّي، ص 110.

[10]المرجع السابق نفسه،ص68، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي،ص129،الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص342،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم ، ص98.

[11]خلفاء الرسول ،خالد محمد خالد،ص768، 769، تاريخ الشعوب الإسلامية،كارل بروكلمان، ص150.

[12]سورة التوبة/60.

[13] تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم حسن ،ج1، ص329،الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص 342،الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص31/ ص62 ، مجلة كلية الآداب في البصرة ، ص126.

[14] أحكام أهل الذمة،ا بن قيم الجوزية ،ص45.

[15] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ص 147، 148.

[16]سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 213- ص 352، خلفا ء الرسول ، خالد محمد

خالد ، ص 769، 770،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص160.

[17]تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن ،ج1،ص328،رجال الفكر والدعوة،الندوي ،ص120،الكامل في التاريخ،ابن الأثير ،ص51.

[18]سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي,ص141,البداية والنهاية,ابن كثير,ص155.

[19] الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص342،تاريخ الشعوب الإسلامية،كارل بروكلمان،ص150.

[20]أنظر الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ،عبد الكريم زيدان ، ص74ومابعدها ،قال ابن منظورعن المستأمن هو:"غير المسلم يعيش في بلاد غير المسلمين، والذين لا صلح بينهم وبين المسلمين"،لسان العرب ،ص 303.

[21] يرى كثير من الفقهاء والمفكرين المسلمين ، في العصر الحالي ، ضرورة استبدال مصطلح دار الحرب بدار الدعوة، وهذا أنسب والله أعلم.

[22]سورة التوبة /06.

[23]الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام،عبد الكريم زيدان،ص74.

[24]الكامل في التاريخ,ابن الأثيرج5,ص60,محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية،محمد الخضري، ص181.

[25]في التاريخ الإسلامي، عماد الدين خليل ،ص72- ص77.

[26] البداية والنهاية، ابن كثير، ص154.

[27] قادة فتح المغرب العربي، محمود شيت خطاب، ص283، تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، ص320، التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ص250، تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ص149.

[28] يراد به ماوراء نهر جيحون "أمودارية"، شرق خراسان، فيها مناطق: الصغد، وفرغانة، والختل، والشاش .. وأشهر مدنها: سمرقند، وبخارى، وطشقند، وترمذ..، أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح(أماكن وأقوام)، شوقي أبوخليل، ص328.

[29] دراسات في تاريخ العرب- تاريخ الدولة العربية- ، السيد عبد العزيز سالم، ص362، تاريخ اليعقوبي، ص302، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص289.

[30] الإنسان العربي و التاريخ، أنور الرفاعي، ص 263، 264.

[31] المرجع السابق نفسه، ص 261، البداية و النهاية، ابن كثير، ص152، الطبقات الكبرى، ابن سعد، ص31.

[32] خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، ص 769- ص 779 .